Journal Of the Iraqia University (73-3) January (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

إضاءة على برهان التوحيد وتجلياته في تفسير الميزان

حيدر محسن رحمه الياسري
الاستاذ المشرف :محمد كاظم رحمان ستايش
جامعة قم كلية الهيات ومعارف اسلامي
ha2214911@gmail.com

الملخص

يعد برهان التوحيد من أهم وأبرز البراهين الوجودية التي من شأنها إثبات الله تعالى من خلال الاعتقاد بوجود الواجب الوجود وتأثيره على إيجاد الممكنات من العدم إلى الوجود. كذلك يعتمد هذا البرهان على وحدانية الله تعالى وتعاليه عن وجود أي شريك له. على ضوء هذا، إن العلامة الطباطبائي من أقطاب المفسرين المعاصرين والذي كان له يد طولى في تطبيق الآيات القرآنية على الفلسفة والمكونات الفلسفية.في هذه الدراسة تم التحدث عن بعدين هامين:أولا: البعد النظري: وذلك يرتبط بالمفاهيم المبدئية النظرية للبحث كتعريف برهان التوحيد وأنواعه وتجلياته بصورة عامة.ثانيا: البعد التطبيقي: تم تطبيق برهان التوحيد على تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي من خلال تحليل الآيات القرآنية الكريمة. من النتائج التي حصلت عليها الدراسة هذه، أن التوحيد الذاتي هو الأكثر وجودا وشيوعا في تفسير الميزان، هذا أولا، لكن ثانيا إن الطباطبائي تكلم بصورة مباشرة وغير مباشرة عن أبعاد برهان التوحيد في تفسيره. كذلك تكلم عن مكونات البرهان في تفسيره.**المفردات المفتاحية: برهان التوحيد، الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي**

المقدمة

قال الطباطبائي عن ماهية برهان التوحيد «لا يرتاب الباحث المتعمق في المعارف الكلية أن مسألة التوحيد من أبعدها غورا، وأصعبها تصورا و إدراكا، وأعضلها حلا لارتفاع كعبها عن المسائل العامة العامية التي تتناولها الأفهام، و القضايا المتداولة التي تألفها النفوس، و تعرفها القلوب.و ما هذا شأنه تختلف العقول في إدراكه و التصديق به للتنوع الفكري الذي فطر عليه الإنسان من اختلاف أفراده من جهة البنية الجسمية و أداء ذلك إلى اختلاف أعضاء الإدراك في أعمالها ثم تأثير ذلك الفهم و التعقل من حيث الحدة و البلادة، و الجودة و الرداءة، و الاستقامة و الانحراف»[1].أورد العلامة الطباطبائي بعض الأحاديث التي تنص على برهان التوحيد حيث قال: «في التوحيد، والخصال، بإسناده عن المقدام بن شريح بن هاني عن أبيه قال: إن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين أ تقول: إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه و قالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين– من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): دعوه– فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم. ثم قال: يا أعرابي– إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله تعالى، ووجهان يثبتان فيه؛ فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد–أ ما ترى أنه كفر من قال: إنه ثالث ثلاثة؟ و قول القائل: هو واحد من الناس– يريد به النوع من الجنس– فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه، وجل ربنا و تعالى عن ذلك. وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربنا، و قول القائل: إنه عز وجل أحدي المعنى– يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا تعالى».[2]**بيان المسألة:** إن برهان التوحيد من المكونات الفلسفية الهامة التي تم استخدامها لإثبات وحدانية الله تعالى من خلال المقدمات الفلسفية لا سيما في الدراسات والبحوث الفلسفية، غير أننا نلاحظ أحيانا يستخدمه بعض المفسرين خلال تحليلاتهم للآيات القرآنية. لكن المسألة التي تفضي بنا إلى دراسة برهان التوحيد في تفسير الميزان هي ميل العلامة الطباطبائي الكثير إلى تطبيق تفسيره على البراهين الفلسفية لا سيما برهان التوحيد.**سؤال التحقيق:**كيف طبق العلامة الطباطبائي برهان التوحيد على تفسيره الميزان؟**فرضية التحقيق:** من المفترض أنه استفاد من برهان التوحيد بكل ما فيه من الأبعاد من التوحيد الذاتي والعبادي والتشريعي

وغيرها، بصورة غير مباشرة، بمعنى أنه لم يأت بالمقدمات الفلسفية الخاصة بالبرهان بل أشار إلى مضمون البرهان وفحواه ضمنيا.**سابقة البحث:** أنجزت في هذا المجال بعض المقالات والكتب غير أنها لا تتشابه مع هذه الدراسة تشابها جذريا ومن اهم هذه المقالات والكتب:كتاب مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني، وقد تطرق الكاتب في هذا الكتاب إلى جميع البراهيم المثبتة وجود الله تعالى من الناحية النظرية، وعلى الرغم من أننا نقدر على الاستعانة به في إنجاز عملنا إلا أنه لا يمت لموضوعنا بصلة جذرية.كتاب التوحيد ألفه محمد التميمي، وتكلم فيه عن ماهية التوحيد ومعناه الاصطلاحي، كذلك حرص الكاتب على الاتيان بجميع أنواع التوحيد في كتابه هذا مثل ما لمحناه في كتاب مفاهيم القرآن للسبحاني، كذلك أتى ببعض الآيات والأحاديث المثبتة لوجود الله تعالى.مقالة تحت عنوان نظرية التوحيد الذاتي في فلسفة الفارابي، ألفها جميل علي جميل الموسوي، ونشرها في جامعة بغداد، وتكلم فيها عن التوحيد الأحدي الذاتي والتوحيد الذاتي واحد لا ثاني، وضرورة السببية والدور التسلسل، وصيرورة الكثرة.**ماهية برهان التوحيد**هناك تعاريف مختلفة عن هذا البرهان في الكتب المتعددة، غير أن اللافت هناك اشتراك ماهوي بين هذه التعاريف كلها. من هذه التعاريف: «أن كل ما يدعى إلها مع الله تعالى مملوك له وكل مملوك له ليس بإله معه فكل ما يدعى إلها معه ليس في الحقيقة إلها معه»[٣].ورد أيضا في مفهوم هذا البرهان «مطالعة نور الوحدة في الآثار، و الشواهد، ونفي الكثرة عن ذات الله تعالى؛ فإن الله تعالى ليس له شريك، و إن وحدته ليست عن عدد؛ و إنما قولنا: واحد، ووحدة؛ للتنزيه عن أن يكون معه غيره، و للتفخيم أيضا حيث يشعر بالاستغناء، و عدم العجز لا للدلالة على مفهوم الوحدة المقيس بالكثرة. وقولنا: نفى الكثرة؛ لدفع التوهم و للتفهيم، وإلا فبعد إثبات أنه الحق هو الوجود الفائض على الموجودات لا حاجة إليه. فإن قلت؛ فعلى هذا يلزم أن يصح للكل أن يقول: لا إله إلا أنا، وأنا الحق؛ كما فعله الحلاج و نحوه. قلت: لا شك أن للإنسان وجهين: وجه الإطلاق، و وجه التقييد. فالوجه الأول: يلي جانب الحق، و به يدركه، و من يدركه. و الثاني: يلي الخلق، و به يتقيد بالأحكام من يتقيد»[٤].كذلك ورد في التفسير الكاشف، «ويتلخص معنى التوحيد بقوله تعالى: ليس كمثله شيء لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال»[٥].قرر صاحب من هدى القرآن «فاذا أردنا اختيار قيادة فلا نختار غير ما يريده الله لأنه إلهنا، فهو أولى بنا من أنفسنا، و هذا معنى التوحيد. (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى و الآخرة وله الحكم وإليه ترجعون)[٦] فالذي خلق و أحاط علمه بالغيب و الشهادة أحاطت رحمته الخلق في المبدأ و المصير، و هو المهيمن على شؤون الخليقة. انه الحميد الذي يختار لنا إمامنا الذي نطيعه»[٧].كما ورد أيضا في نهج البلاغة عن برهان التوحيد «أول الدين معرفته، و كمال معرفته التصديق به، و كمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، و كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه– لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، و من جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»[٨].هناك أحاديث أيضا توضح لنا هذا المفهوم، كذلك تؤكد بعض الروايات: «جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول الله علمني من غرائب العلم، قال: ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟ قال الرجل: ما رأس العلم يا رسول الله؟ قال: معرفة الله حق معرفته. قال الأعرابي: وما معرفة الله حق معرفته؟ قال: تعرفه بلا مثل ولا شبه و لا ند وأنه واحد أحد ظاهر باطن، أول آخر، لا كفو له ولا نظير له، فذلك حق معرفته»[٩]. هذه التعابير الأخيرة من الحديث تؤكد على وحدانية الله تعالى.كذلك هناك حديث آخر يوضح لنا هذا المفهوم، «ثم قال: يا أعرابي أن القول في الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها يجوزان على الله و وجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد، يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد الا ترى انه كفر من قال ثالث ثلاثة وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز، لأنه تشبيه وجل ربنا عن ذلك. وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربنا، و قول القائل: إنه عز وجل أحدي المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم،كذلك ربنا عز وجل»[١٠].كذلك قال الإمام الباقر (عليه السلام) عن برهان التوحيد «وتقول العرب أله الرجل إذا تحير في الشيء فلم يحط به علما و وله إذا فزع إلى شيء قال والأحد الفرد المتفرد والأحد و الواحد بمعنى واحد و هو المتفرد الذي لا نظير له و التوحيد الإقرار بالوحدة و هو الانفراد و الواحد المباين الذي لا ينبعث من شيء ولا يتحد بشيء و من ثم قالوا إن بناء العدد من الواحد و ليس الواحد من العدد لأن العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين فمعنى قوله «الله أحد» أي المعبود الذي يسأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته فرد بإلهيته متعال عن صفات خلقه»[١١].هناك آيات كثيرة تنص على وحدة الله تعالى ويؤكد العلامة عليه ايضا: (قل الله خالق كل شيء و هو الواحد القهار)[١٢] والجملة صدرها دعوى دليلها ذيلها أي أنه تعالى واحد في خالقيته لا شريك له فيها، وكيف يكون له فيها شريك و له وحدة يقهر كل عدد وكثرة وقد ذكر في تفسير قوله تعالى: (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)[١٣] بعض الكلام في معنى كونه تعالى هو الواحد القهار، وتبين هناك أن مجموع هاتين الصفتين ينتج صفة الأحدية))[١٤].يتحدث الطباطبائي في تحاليله وتأويلاته للآيات القرآنية، عن ثلاث توحيدات[١٥]

أ)التوحيد الذاتي: بيان ذلك هو ((ومن هنا يظهر أن التوحيد الذاتي بمعنى معرفة الذات بما هو ذات مستحيل فإن المعرفة نسبة بين العارف و المعروف وقد عرفت أن النسب ساقطة هناك و كل ما تعلق من المعرفة به فإنما بالاسم دون الذات ولا يحيطون به علما وإليه يرجع ما ذكروا أن المعرفة على قدر العارف مثال ذلك الاعتراف من البحر فإن القدح مثلا لا يريد إلاّ البحر لكن الذي يأخذه على قدر سعته. ويظهر أيضا أنه خارج عن حيطة البيان أيضا. ومن هنا يتبين أن التوحيد الذاتي آخر درجات التوحيد فإن كمال التوحيد بحسب إطلاق الموحد فيه وإرساله وهو هاهنا كل تعين حقيقي أو اعتباري حتى نفس التوحيد)) [١٦].كما قرر البعض أيضا أن هذا التوحيد معناه «ان سلسلة الأسباب منتهية اليه سبحانه ولا موجد لها سواه بل لا موجود الا هو وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو»[١٧].نلاحظ في تفسير المحيط الأعظم نفس المفهوم : « والتوحيد الذاتي المشار إليه الآن عبارة عن إسقاط كل ذات و وجود عن النظر حتى يصل صاحبه إلى الوجود المطلق المحض، و الذات البحت الخاص الذي هو موجد كل موجود، منشئ جميع الذوات، ويثبت بذلك قدمه الشهودي الروحي في التوحيد الوجودي الذاتي، و يصير به عارفا كاملا مكملا محققا، و أصلا مقام الاستقامة و التمكن، الذي لا مقام فوقه، المعبر عنه في قولهم: «ليس وراء عبادان قرية»[١٨].ب)توحيد الخالقية: إن هذا التوحيد معناه أن الله تعالى هو الخالق المطلق ولا أحد يماثله في ذلك أبدا. وهنا يطرح السؤال نفسه « ماذا يراد من أن الله سبحانه هو الخالق الوحيد وان الذوات والأشياء وما يتبعها من الأفعال والآثار حتى الإنسان وما يصدر منه، مخلوقات لله سبحانه بلا مجاز ولا شائبة عناية؟ إن الوقوف على تلك الحقيقة القرآنية يتوقف على تحليل معنى الخلق لغة واستعمالا.إن لفظة «الخلق» تارة يراد منها «التقدير» وأخرى الإبداع والإيجاد، والميزان في ذلك هو إنه إذا قيل: خلق هذا من ذاك وذكرت معه المادة القابلة للصياغة والتصوير والنحت و التكوين يراد منه التقدير، لكن معنى التوحيد الخالقي هو أن لا تعترف بخالق أصيل ومستقل إلا الله، كما أنها لا تعترف بمقدر أصيل للأشياء وهاد واقعي لها غيره سبحان»[١٩].والآية المشيرة إلى ذلك: (قل الله خالق كل شيء)[٢٠]. وقال مكارم الشيرازي تعليقا على توحيد الخالقية «دليله واضح، فحين ثبت بالأدلة السابقة أن واجب الوجود واحد، و كل ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أن خالق كل الموجودات واحد أيضا»[٢١].ت)التوحيد الأفعالي: إن هذا التوحيد معناه، كما يفهم من السياق الآتي، أنه ليس من فاصل بين إرادته والفعل المطلوب من جانبه، كما أن له التأثير في وجود الأشياء. ومفهوم هذا التوحيد أنه «يستكشف نفوذ إرادته تعالى في جميع الأشياء؛ و أن كل فعل صادر من العباد و غيرهم، أنه تعالى ذو مدخلية فيه؛ على الوجه المقرر في الكتب العقلية[٢٢] وفي قواعدنا الحكمية، فإن درك كيفية الدخالة صعب جدا»[٢٣]. ذلك يتجلى في التعبير في تعبير الطباطبائي: ((فلا مؤثر في الوجود إلا الله))[٢٤]. بناء على هذا، يعود إليه جميع أفعال البشرية وغيرها. ذلك يتضح لنا من خلال هذا التعبير: ((إن الأمور تنسب إلى الله قضاء وقدرا، على سبيل المثال تنمو النواة في التراب ثم تكبر ساقها وفروعها وتورق وتثمر و تتحول النطفة إلى الجسم الذي يمتلك الحياة والحس. كل ذلك، إذن، يعد حكما من الله تعالى. فمعنى الحكم هو إثبات الشيء عند الشيء أو إثبات الشيء للشيء. ونظرية التوحيد التي بنى القرآن الكريم أساس معارفه عليها لما كانت تؤكد على أن التاثير في الوجود يخص الله تعالى وحده ولا مثيل له في ذلك، وإن كانت النسبة مختلفة بتنوع الأشياء غير جارية على وتيرة واحدة. مجموع الكلام، إذا كان التأثير لله تعالى يكون الحكم الذي يعد نوعا من التأثير والجعل له تعالى على حد سواء في ذلك الحكم في الشرائع الوضعية أو القضايا التكوينية))[٢٥].إن «التوحيد الافعالي» على هذا الأساس «لا يعني إنكار العلل الطبيعية أو إنكار مشاركتها في التأثير وفي حدوث معلولاتها، بل يعني مع الاعتراف بأن للعلل تمام المشاركة في ظهور الآثار، وأن هذه الآثار هي من خواص هذه العلل. أقول: يعني مع الاعتراف بهذا، الاعتراف بأنه لا مؤثر حقيقي في صفحة الوجود إلا الله وأن تأثير ما سواه من المؤثرات إنما هو في ظل قدرة الله، ذلك المؤثر الحقيقي الأصيل، وأن هذه العلل ما هي إلا وسائط للفيض الإلهي»[٢٦].ومن ناحية أخرى إنه ليس هناك فاصلا بين مشيئة الله وفعله حسب التوحيد الأفعالي (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء)[٢٧]،((فبين أن أمره الذي يملكه من كل شيء سواء كان ذاتا أو صفة أو فعلا أثرا هو قول كن وكلمة الإيجاد وهو الوجود الذي يفيضه عليه فيوجد هو به، فإذا قال لشيء: كن فكان، فقد أفاض عليه ما وجد به من الوجود، وهذا الوجود الموهوب له نسبة إلى الله سبحانه وهو بذاك الاعتبار أمره تعالى وكلمة كن الإلهية، وله نسبة إلى الشيء الموجود، وهو بذاك الاعتبار أمره الراجع إلى ربه، قد عبر عنه في الآية بقوله فيكون))[٢٨].لكن اللافت للنظر أن الإرادة الإلهية في هذا المجال ليست تشريعية بل تكوينية ، كما قال بعض المفسرين «فما يجري من حوادث كلها بإذن الله لا تخرج عن إرادته أبدا، و هذا هو معنى (التوحيد الأفعالي) و إنما بدأ بذكر المصائب باعتبارها هي التي يستفهم عنها الإنسان دائما و تشغل تفكيره، و عند ما نقول يقع ذلك بإرادة الله، فإنما نعني الإرادة التكوينية لا الإرادة التشريعية»[٢٩].ث)التوحيد الصفاتي: شأنه شأن التوحيدات الأخرى، ويعني اتحاد الله مع صفاته ومن هذا المنطلق، إن ((جميع ما يفترض له من الأوصاف في هذا المقام هو نفس الآخر لعدم الحد، لذلك ذات الله سبحانه نفس صفاته وكل ما نميزه به من الصفة نفس الأخرى. بناء على ذلك نلاحظ أن الآيات القرآنية تنفي ذلك عنه الإشراك والوصف وبالعكس إذا تصفه تعالى

بالقهارية مثلا تتصدر بالوحدة أولا من ثم تنعته بالقهارية لتشير إلى أن وحدته تعالى لا تسمح لأحد بالفرض له ثانيا متشابها معه بنحو مماثلا بوجه إضافة إلى أن أن يتجلى في الوجود، ويدرك الواقع والثبوت، فاتصافه بالوحدة القاهرة لكل مماثل لا يسمح لغيره سبحانه إلا الإسم فقط))[٣٠]. وبيان ذلك و«هو أن من انكشف له حجب الصفات كلها و أرتفع عنه حجب مشاهدة الغير مطلقا بحيث ما شاهد في الوجود كله إلا صفة واحدة حقيقية سارية في الكل سريان الحياة في البدن الإنسان، أو سريان صفة القدرة على الفعل في الإنسان و الحيوان، أعني مشاهدة صفة واحدة مضافة إلى ذات واحدة متصرفة في الكل، والكل متصفة بها كاتصاف كل عضو بصفة الحياة أو القدرة»[٣١].وإلى التوحيدات الثلاث أشار النبي صلى الله عليه وآله في دعائه المشهور عند الخاص والعام و الموافق والمخالف، وهو قوله:«اللهم إني أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك». لأن الأول إشارة إلى التوحيد الفعلي، والثاني إلى التوحيد الصفاتي، والثالث إلى التوحيد الذاتي»[٣٢].ح- التوحيد العبادي: معناه أن العبادة خاصة بالله تعالى دون غيره و هو اللائق بهذا الأمر من قبل جميع الناس. «هذا المعنى للتَّوحيد في العبادة هو نفس التَّوحيد في الطَّاعة الذي تقدّم توضيحه من قبل، خلوص النيّة في عبادة الله وحدَه، إنّ التَّوحيد في الطَّاعة وإن كان يلازم التَّوحيد في العبادة أَيضا . لأَنّ طاعة الأَوامر الإلهيّة بنحو مطلق يستلزم إخلاص النيّة . ولكن ارتأينا لتوحيد العبادة»[٣٣].من جهة أخرى، «اتفق على اختصاصه بالله سبحانه جميع المسلمين بل الإلهيين، وهو الهدف والغاية الأسنى من بعث الأنبياء والمرسلين، قال سبحانه: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت). وناهيك في أهمية ذلك أن الإسلام قرره شعارا للمسلمين يؤكدون عليه في صلواتهم الواجبة والمندوبة بقولهم: (إياك نعبد وإياك نستعين).كما أن مكافحة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل وسائر الأنبياء للوثنيين تتركز على هذه النقطة غالبا كما هو ظاهر لمن راجع القرآن الكريم»[٣٤].خ- التوحيد التشريعي: معناه أن المجتمع البشري بحاجة إلى قانون والشريعة، وليس يقدر أحد على التقنين والتشريع سوى الله تعالى. بعبارة أدق: والمراد منه انّ «التشريع والتقنين للإنسان حقّ مختص بالله تبارك وتعالى فهو المشرّع الوحيد للمجتمع الإنساني ولا يحق لأحد التقنين»[٣٥]. «وهذا الأصل يبتني على الآية الشريفة إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ «حيث إنّ المراد من الحكم هنا، عملية التقنين، وعلى هذا الأساس فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسه غير مشرّع: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي وعلى أساس هذا الأصل أيضاً فنحن نعتقد بأنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) في الواقع مبيّنون للأحكام الشرعية .وعليه فإنّ وضع الحكم الشرعي».[٣٦]

تطبيق برهان التوحيد على تفسير الميزان

استخدم العلامة الطباطبائي برهان التوحيد في تفسيره الميزان بكثافة واضحة وفيما يلي عرضها:

١- التوحيد الذاتي: من الآيات التي تؤكد على التوحيد الذاتي في تفسير الميزان ما يلي:

أ- قال تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)[٣٧]. اكدت هذه الآية على وحدانية الله تعالى وعدم وجود شريك له في تكوين العالم وتدبيره وكذلك تنفي الآية اي تركيب وتكثر عنه على الإطلاق. وقرر العلامة في تفسيره «وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجا و لا ذهنا و لذلك لا يقبل العد و لا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثانيا وثالثا إما خارجا و إما ذهنا بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرا، وأما الأحد فكل ما فرض له ثانيا كان هو هو لم يزد عليه شيء. واعتبر ذلك في قولك: ما جاءني من القوم أحد فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم و أكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد و لا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر، ولإفادته هذا المعنى لا يستعمل في الإيجاب مطلقا إلا فيه تعالى و من لطيف البيان في هذا الباب قول علي عليه أفضل السلام في بعض خطبه في توحيده تعالى: كل مسمى بالوحدة غيره قليل»[٣٨]. ولقد أثبت العلامة ههنا من خلال بعض الأمثلة وحدانية الله تعالى وبعده عن التكثر و التركيب.وومن الناحية الأخرى، ويقول العلامة في وحدة الله تعالى أيضا: «عندما يستفسر الإنسان بإصرار قوته الفطرية عن الله تعالى فهو، في الحقيقة، بادئ ذي بدء، عن (الله تعالى) عبر ملاحظة الآيات يعني المنهج العلمي، فهو يلاحظ قبل كل شي إلى حكمته وعلمه وحياته سبحانه، وعبر التعرف على مميزات الله يقضي بأن الطبيعة والمادة لا استقلال لهما بل خاضعتان لقدرة مدركة وعالمة. أما السلوك الفلسفي يحدد لنا أن العالم ليس خاليا من موجود أو موجودات قائمة بالذات وأن جميعها ليست مستقلة وممكنة بل الممكن متكئ على الواجب والواجب له الاستقلال التام وممتاز بالوحدة الحقيقية»[٣٩].ب-آية (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)[٤٠]. هذه الآية تنص أيضا على أن الله تعالى واحد لا مثيل ولا نظير له. ويقول العلامة تعليقا على هذه الآية «والله سبحانه واحد، من جهة أن الصفة التي لا يشاركه فيها غيره، كالألوهية فهو واحد في الألوهية، لا يشاركه فيها غيره تعالى، و العلم والقدرة والحياة، فله علم لا كالعلوم و قدرة و حياة لا كقدرة غيره و حياته، و واحد من جهة أن الصفات التي له لا تتكثر ولا تتعدد إلا مفهوما فقط، فعلمه و قدرته و حياته جميعها شيء واحد هو ذاته، ليس شيء منها غير الآخر بل هو تعالى يعلم بقدرته ويقدر بحياته و حي بعلمه، لا كمثل غيره في تعدد الصفات عينا و مفهوما، و ربما يتصف الشيء

بالوحدة من جهة ذاته، وهو عدم التكثر والتجزي في الذات بذاته، فلا تتجزى إلى جزء و جزء، و إلى ذات واسم وهكذا، و هذه الوحدة هي المسماة بأحدية الذات، و يدل على هذا المعنى بلفظ أحد، الذي لا يقع في الكلام من غير تقييد بالإضافة إلا إذا وقع في حيز النفي أو النهي أو ما في معناهما»[٤١].ت- آية (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)[٤٢]. هذه الآية حصرت الألوهية لله تعالى ونفت عنه أي شريك و مثيل من خلال أدوات الحصر. لم يتحدث العلامة الطباطبائي، في تفسيره، عما يكون في هذه الآية من تحليل ومفهوم في مجال وحدانية الله تعالى، غير أن هذه الآية تؤكد مثل ما سبق من الآيات الأخرى على نفي التركيب والتكثر لله تعالى ونفيه عن أي شريك له في العالم.

٢- توحيد الخالقية: توحيد الخالقية معناه، كما سبق أن قلناه، أن الله تعالى هو الذي خلق العالم بكل ما فيه من الحيوانات والجمادات و النباتات. ومن الآيات الكريمة في هذه المناسبة:

١- آية (ألا له الخلق والأمر)[٤٣] والآية تثبت الخالقية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير وكل التدبير إليه وتشمل انتهاء الأشياء إليه من حيث البدء وهو الفطر، وانتهاءها إليه من حيث العود والرجوع وهو الحشر))[٤٤]. فذاته هي مطلقة وموجدة للذوات الأخرى.

وإيضاح ذلك ((أنه إذا انفرد كل من الخلق والأمر صح أن يتعلق بكل شيء، كل بالعناية الخاصة به، وإذا اجتمعا كان الخلق أحرى بأن يتعلق بالذوات لما أنها أوجدت بعد تقدير ذواتها وآثارها، ويتعلق الأمر بآثارها والنظام الجاري فيها بالتفاعل العام بينها لما أن الآثار هي التي قدرت للذوات ولا وجه لتقدير المقدر فافهم ذلك. إن المراد بالخلق ما يتعلق من الإيجاد بذوات الأشياء، وبالأمر ما يتعلق بآثارها والأوضاع الحاصلة فيها والنظام الجاري بينها كما ميز بين الجهتين في أول الآية حيث قال: (خلق السماوات والأرض في ستة أيام)[٤٥] وهذا هو إيجاد الذوات (ثم استوى على العرش يدبر الأمر)[٤٦] وهو إيجاد النظام الأحسن بينها بإيقاع الأمر تلو الأمر والإتيان بالواحد منه بعد الواحد))[٤٧].

٢- آية (ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكيلٌ))[٤٨]. وتفسير الآية هو ((أن الله سبحانه هو الفاطر والخالق لجميع الكائنات، وهو رب الجمع على الإطلاق. وتعبيره تعالى: لا إله إلا هو فيه تصريح بالتوحيد، وهو ينص على التعليل هو الرب ليس هناك مقابله رب لأنه الله الذي ليس هناك مقابله إله وأنى يكون ما سواه ربا وليس بإله ألبتة. وكلامه سبحانه: خالق كل شيء أي هو تعليل لتعبيره: لا إله إلا هو ويعني ذلك انحصار ألوهيته فيه، بسبب أنه هو الخالق لجميع الأشياء على الإطلاق. فما من خالق سواه لشيء من الأشياء لكي يساهمه في الألوهية، والجميع خلق به ومنقاد له بالعبودية. و تعبيره: فاعبدوه تفرع بصفة النتيجة على تعبيره: ذلكم الله ربكم، ذلك يعني لما كان الله تعالى هو ربكم لا سواه فاعبدوه، وتعبيره: وهو على كل شيء وكيل أي هو المدبر لجميع الأشياء والقائم والموجد نظامها الوجودي وحياتها، وفي الحالة هذه يتوجب على الإنسان أن يعبده ولا يجعل له شريكا بغير علم))[٤٩].

٣- آية (ام جَعَلوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقوا كَخَلقِهِ فتَشبَهَ الخَلقُ عَلَيهِم قُلِ اللَّهُ خلِقُ كُلّ شَيءٍ وهُوَ الواحِدُ القَهار).[٥٠] هذه الآية بمثابة برهان قاطع على من جعل لله تعالى شريكا في خلقته وما إلى ذلك. يقول العلامة الطباطبائي إن مفاد الآية إلى مثل قولنا: «إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات والأرض إلا الله؟ أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعا ولا ضرا؟ فالعدول عن التفريع إلى أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: قل كذا وقل كذا و تكراره مرة بعد مرة إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذارة الجهل و العناد و هذا من لطيف نظم القرآن. دليل على أن السؤال إنما هو عن النبي ص و المطلوب من إلقاء توحيد الخالق إليهم هو الإلقاء الابتدائي لا الإلقاء بنحو الجواب، وليس إلا لأنهم لا يقولون بخالق غير الله سبحانه كما قال تعالى».[٥١]

٤- آية (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)[٥٢]، الآية تنص على وحدانية الله تعالى وعدم وجود شريك له على الإطلاق، كما إنها تؤكد على أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بتوحيده سبحانه من اللاوعي «إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عمن خلق السماوات و الأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه و إذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، وإذا كان مدبر الأمر و المنعم الذي يبسط و يقبض و يرجى و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون.و لذلك أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: «قل الحمد لله» ثم أشار إلى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال: «بل أكثرهم لا يعلمون» نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه و قد أيقنوا به»[٥٣].

4- آية (الَّذى لَهُ مُلكُ السَّموتِ والارضِ ولَم يتَّخِذ وَلَدًا ولَم يَكُن لَهُ شَريكٌ فِى المُلكِ وخَلَقَ كُلَّ شَىءٍ فقَدَّرَهُ تَقديرا • واتَّخَذوا مِن دونِهِ ءالِهَةً لا يَخلُقونَ)[٥٤]. ان السياق الغالب على الآية يشير اختصاص السموات والأرض لله تعالى دون غيره. كما يقول العلامة في تفسيره «و اللام

للاختصاص- يفيد أن السماوات و الأرض مملوكة له غير مستقلة بنفسها في جهة من جهاتها و لا مستغنية عن التصرف فيها بالحكم و أن الحكم فيها و إدارة رحاها يختص به تعالى فهو المليك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق»[٥٥].

٦- آية (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يُحييكُم هَل مِن شُرَكاكُم مَن يَفعَلُ مِن ذلِكُم مِن شَىءٍ سُبحنَهُ وتَعلى عَمّا يُشرِكون)[٥٦]. ومفهوم الآية حسب يبدو من السياق أن الله تعالى، فضلا عن توحده في أمر الخالقية، تختص به عملية الإحياء والإماتة، يقول العلامة في هذا السياق «أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا وكذا وصفا من أوصاف الألوهية والربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئا من ذلكم يعني من الخلق و الرزق والإماتة و الإحياء وإذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم و ربكم لا إله إلا هو. ولعل الوجه في ذكر الخلق مع الرزق والإحياء و الإماتة مع تكرر تقدم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفك عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق في الحقيقة من الخلق فالذي يخلق الخلق هو الذي يرزق الرزق. فليس لهم أن يقولوا: إن الرازق وكذا المحيي و المميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة و مدبر كل شأن من شئون العالم من الخيرات و الشرور بعضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق و الإيجاد منه تعالى لا يشاركه في ذلك أحد فإذا سلم ذلك و من المسلم أن الرزق مثلا خلق و كذا سائر الشئون لا تنفك عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى و لم يبق لآلهتهم شأن من الشئون».[٥٧]

٧- آية (بَديعُ السَّموتِ والارضِ انّى يَكونُ لَهُ ولَدٌ ولَم تَكُن لَهُ صحِبَةٌ وخَلَقَ كُلَّ شَىءٍ وهُوَ بِكُلّ شَىءٍ عَليم)[٥٨]. «وأيضا هو تعالى الخالق لكل شيء و فاطره، و الولد هو الجزء من الشيء يربيه بنوع من اللقاح و جزء الشيء و المماثل له لا يكون مخلوقا له البتة، و يجمع الجميع أنه تعالى بديع السماوات و الأرض الذي لا يماثله شيء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبة يتزوج بها أو بنون و بنات يماثلونه في النوع فهذا أمر يخبر به الله الذي لا سبيل للجهل إليه فهو بكل شيء عليم»[٥٩].

٣- التوحيد الصفاتي: هذا النوع من التوحيد، كما سبق ذكره، معناه أن أن الله تعالى متحد ومتفق على الإطلاق بما يليه من الأوصاف. كما نفهم من تعبير الطباطبائي التالي، تعليقا على الآيات التالية:

١- آية (اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)، [٦٠] هذه الآية ((وصفه تعالى أولا بأنه صمد، وهو المصمت الذي لا جوف له ولا مكان خاليا فيه، وثانيا بأنه لم يلد، وثالثا بأنه لم يولد، ورابعا بأنه لم يكن له كفوا أحد، وكل هذه الأوصاف مما يستلزم نوعا من المحدودية والانعزال. وهذا هو السر في عدم وقوع توصيفات غيره تعالى عليه حق الوقوع والاتصاف قال تعالى: (سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين)[٦١]. وقال تعالى: (ولا يحيطون به علما)[٦٢] فإن المعاني الكمالية التي نصفه تعالى بها أوصاف محدودة، وجلت ساحته سبحانه عن الحد والقيد))[٦٣]. وبالإضافة إلى ذلك إن القرآن الكريم ينفي أية مثلية له سبحانه على الإطلاق. وفي ذلك يقول العلامة الطباطبائي تعليقا على آية من سورة الشورى ((ثم إن من الضروري الثابت بالضرورة من الكتاب والسنة أن الله سبحانه وتعالى لا يوصف بصفة الأجسام، ولا ينعت بنعوت الممكنات مما يقضي بالحدوث، ويلازم الفقر والحاجة والنقص، فقد قال تعالى: (ليس كمثله شيء)[٦٤]، وقال تعالى: وقال تعالى: (الله خالق كل شيء)[٦٥] يفهم منها معنى من المعاني لا ينافي صفاته العليا وأسماءه الحسنى تبارك وتعالى)) [٦٦].

٢- آية (والله هو الغني)[٦٧] تشير الآية إلى اتصاف الله تعالى بصفة الغناء المطلق وعدم افتراقه عنها أبدا ومن جهة أخرى «فقصر الفقر فيهم وقصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم وكل الغنى فيه سبحانه، و إذ كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى. فالله سبحانه غني بالذات له أن يذهبهم ويستغني عنهم وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره. والملاك في غناه تعالى عنهم و فقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم وإليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه»[٦٨].

٣- آية (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[٦٩]. هذه الآية تنص على أن الله تعالى لا يشبه أحدا، لا في التسمية ولا في الصفات. قال العلامة عن الآية «أنه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها، وهذا خلق و تدبير، وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج فيقضي لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادخر فيها ما لها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق عن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للأمور. أي ليس مثله شيء، فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب»[٧٠].

4- التوحيد العبادي: سبق أن ذكرنا أن التوحيد العبادي يعني اختصاص العبادة لله تعالى، وههنا نأتي ببعض الآيات المرتبطة بها:

١- آية (وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ)[٧١]، هذه الآية استخدمت أدوات الحصر لتؤكد على اختصاص العبادة لله تعالى، كما وضح العلامة الطباطبائي هذا الأمر «نفي واستثناء و أن مصدرية و جوز أن يكون نهيا و استثناء و أن مصدرية أو مفسرة، وعلى أي حال ينحل مجموع المستثنى والمستثنى منه إلى جملتين كقولنا: تعبدونه ولا تعبدون غيره و ترجع الجملتان بوجه آخر إلى حكم واحد و هو الحكم بعبادته عن إخلاص. والقول سواء كان منحلا إلى جملتين أو عائدا إلى جملة واحدة متعلق القضاء و هو القضاء التشريعي المتعلق بالأحكام والقضايا التشريعية، ويفيد معنى الفصل والحكم القاطع المولوي، وهو كما يتعلق بالأمر يتعلق بالنهي وكما يبرم الأحكام المثبتة يبرم الأحكام المنفية، ولو كان بلفظ الأمر فقيل: و أمر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، لم يصح إلا بنوع من التأويل والتجوز. والأمر بإخلاص العبادة لله سبحانه أعظم الأوامر الدينية و الإخلاص بالعبادة أوجب الواجبات كما أن معصيته وهو الشرك بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقة»[٧٢].

٢- آية (يا أَيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تتَّقُونَ)[٧٣]، هذه الآية خاطب الناس جميعا ليعبدوا الله تعالى باعتباره الخالق المطلق، وهذا يعد من برهان العبادة وحجة قاطعة لهذا الأمر. وحسب ما جاء في تفسير الطباطبائي «حال الفرق الثلاث: المتقين والكافرين، والمنافقين، وأن المتقين على هدى من ربهم والقرآن هدى لهم، و أن الكافرين مختوم على قلوبهم؛ وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأن المنافقين مرضى و زادهم الله مرضا وهم صم بكم عمي (و ذلك في تمام تسع عشرة آية) فرع تعالى على ذلك أن دعا الناس إلى عبادته وأن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين والمنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: خالدون. وهذا السياق يعطي كون قوله: لعلكم تتقون متعلقا بقوله: اعبدوا، دون قوله خلقكم وإن كان المعنى صحيحا على كلا التقديرين».[٧٤]

٣- آية (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقينُ)[٧٥]. هذه الآية تؤكد على اهتمام المخاطب بقضية العبادة وهي التي توصله إلى مرحلة اليقين أو التيقن. وعلى ضوء هذا قال العلامة «المخاطب بهذه الاية هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومقام اليقين للنبي من المسلمات، وهل يجرأ أحد أن يدعي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يصل لدرجة اليقين، حتى يخاطب بالآية المذكورة؟! ثانيا: المقطوع به أن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) لم يترك العبادة حتى آخر لحظات عمره الشريف، وكذا الحال بالنسبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام وهو المستشهد في المحراب، وهو ما سار عليه بقية الأئمة عليهم السلام»[٧٦].

٤- آية (قُلْ هذِهِ سَبيلي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتبَعَني وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكينَ)[٧٧]. الآية تنص على اختصاص الدعوة بالله تعالى. قرر الطباطبائي، «فإن السبيل التي تعرفها الآية هي الدعوة عن بصيرة و يقين إلى إيمان محض وتوحيد خالص و إنما يشاركه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها من كان مخلصا لله في دينه عالما بمقام ربه ذا بصيرة و يقين وليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت، و لا أن الاستواء على هذا المستوي مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدهم الله سبحانه في الآية السابقة من المشركين وذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته، و كيف يدعو إلى الله من كان غافلا عنه آمنا من مكره معرضا عن آياته وذكره؟ وقد وصف الله في آيات كثيرة أصحاب هذه النعوت بالضلال والعمى والخسران ولا تجتمع هذه الخصال بالهداية والإرشاد البتة»[٧٨].

٥- (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)[٧٩]. قوله: «إلا ليعبدون استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أن للخلقة غرضا وأن الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبودا فقد قال: ليعبدون ولم يقل: لأعبد أو لأكون معبودا لهم. على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته و الله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته، ومن جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهي ويستنتج منه أن له سبحانه في فعله غرضا هو ذاته لا غرض خارج منه، وأن لفعله غرضا يعود إلى نفس الفعل وهو كمال للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة و المغفرة و غير ذلك، و لو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضا متوسطا»[٨٠]. بعبارة أخرى، إن الآية السابقة تؤكد حصرا على اختصاص عبادة الإنس والجن جميعا لله تعالى.

٥- التوحيد التشريعي: قلنا سابقا إن التوحيد التشريعي مفهومه أن هناك في هذا العالم قواعد وضوابط معينة، غير أننا نعتقد أيضا أن مبدع هذه القوانين والتشريعات هو الله تعالى على جهة الحصر. في ذلك هناك العديد من الآيات القرآنية نعرض بعضها فيما يلي:

١- آية: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ للّه أَمَرَأَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ)[٨١]: هذه الآية تؤكد على أن الحكم والتشريع لله تعالى، لأنه هو الواضع للأحكام والقواعد «فإن الأمر إلى الله على كل حال. وإليه أشار بقوله بعده: «إن الحكم إلا لله». و هو أعني قوله: «إن الحكم إلا لله» مما لا ريب فيه البتة إذ الحكم في أمر ما لا يستقيم إلا ممن يملك تمام التصرف، ولا مالك للتصرف والتدبير في أمور العالم و تربية العباد حقيقة إلا الله سبحانه فلا حكم بحقيقة

المعنى إلا له. وهو أعني قوله: «إن الحكم إلا لله» مفيد فيما قبله وما بعده صالح لتعليلهما معا».[٨٢] ورد في الآية أسلوب الحصر مؤكدا على اختصاص الحكم والتشريع لله تعالى.

٢- آية (أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ)[٨٣]. «تفريع بنحو الاستفهام على ما بين في الآية السابقة من توليهم مع كون ما يتولون عنه هو حكم الله النازل إليهم و الحق الذي علموا أنه حق، و يمكن أن يكون في مقام النتيجة اللازمة لما بين في جميع الآيات السابقة. والمعنى: وإذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقة نازلة من عند الله ولم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها إلا حكم الجاهلية الناشئة عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم و ليس هناك إلا حكم الجاهلية؟ أفحكم الجاهلية يبغون والحال أنه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدعين للإيمان؟».[٨٤]

٣- آية «والله يحكم لا معقب لحكمه»[٨٥]. «يريد به أن الغلبة لله سبحانه فإنه يحكم و ليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع والرد و هو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهلة حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: «والله يحكم» إلخ في معنى قوله في ذيل آية سورة الأنبياء المتقدمة: (أفهم الغالبون)[٨٦]»[٨٧]. هذه الآية تنص على أن الحكم والتشريع المطلق لله تعالى ولا أحد مسموح بهذا الأمر. وفي ذلك إشارة واضحة إلى البرهان التشريعي.

٤- آية (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلينَ)[٨٨]. في هذه الآية تمت الإشارة إلى اختصاص الحكم بالله تعالى من خلال الاعتماد على أسلوب الحصر. وصرح الطباطبائي في بيان مستقل عن اختصاص الحكم بالله تعالى قائلا: «مادة الحكم تدل على نوع من الإتقان يتلاءم به أجزاء و ينسد به خلله و فرجه فلا يتجزى إلى الأجزاء و لا يتلاشى إلى الأبعاض حتى يضعف أثره و ينكسر سورته، و إلى ذلك يرجع المعنى الجامع بين تفاريق مشتقاته كالإحكام و التحكيم و الحكمة و الحكومة و غير ذلك. و قد تنبه الإنسان على نوع تحقق من هذا المعنى في الوظائف المولوية و الحقوق الدائرة بين الناس فإن الموالي و الرؤساء إذا أمروا بشيء فكأنما يعقدون التكليف على المأمورين و يقيدونهم به عقدا لا يقبل الحل و تقييدا لا يسعهم معه الانطلاق، و كذلك مالك سلعة كذا أو ذو حق في أمر كذا كان بينه و بين سلعته أو الأمر الذي فيه نوعا من الالتيام و الاتصال الذي يمنع أن يتخلل غيره بينه و بين سلعته بالتصرف أو بينه و بين مورد حقه فيقصر عنه يده، فإذا نازع أحد مالك سلعة في ملكها كأن ادعاه لنفسه أو ذا الحق في حقه فأراد إبطال حقه فقد استوهن هذا الإحكام و ضعف هذا الإتقان ثم إذا عقد الحكم أو القاضي الذي رفعت إليه القضية الملك أو الحق لأحد المتنازعين فقد أوجد هناك حكما أي إتقانا بعد فتور، و قوة إحكاما بعد ضعف و وهن. فهذه سبيل تنبه الناس لمعنى الحكم في الأمور الوضعية الاعتبارية ثم رأوا أن معناه يقبل الانطباق على الأمور التكوينية الحقيقية إذا نسبت إلى الله سبحانه من حيث قضائه وقدره فكون النواة مثلا تنمو في التراب ثم تنبسط ساقا وأغصانا وتورق وتثمر وكون النطفة تتبدل جسما ذا حياة وحس وهكذا كل ذلك حكم من الله سبحانه وقضاء، فهذا ما نعلقه من معنى الحكم و هو إثبات شيء لشيء أو إثبات شيء عند شيء»[٨٩].

٥- آية (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ)[٩٠]. تنص الآية على أن الحكم لله على الإطلاق، كما قرر الطباطبائي «أي لست أرفع حاجتكم إلى الله سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذي تتقون به نزول النازلة وتتوسلون به إلى السلامة والعافية ولا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيلة فإن هذه الأسباب لا تغني من الله شيئا ولا لها حكم دون الله سبحانه فليس الحكم مطلقا إلا لله بل هذه أسباب ظاهرية إنما تؤثر إذا أراد الله لها أن تؤثر».[٩١]

النتيجة

من خلال ما سبق حديثنا عن برهان التوحيد، بكل أنواعه، نستنتج الأمور التالية:

١- إن العلامة الطباطبائي يذهب في التوحيد الذاتي إلى أن الله تعالى هو الموجود لذاته و الموجد لغيره. واعتبر القرآن الكريم ذاته سبحانه نورا بسبب إعطاء الغير الوجود و الغناء الذاتي عن غيره. فالله تعالى حسب ما جاء هو نور الأنوار أو واجب الوجود مما يعطي لغيره النور والوجود غير أنه هو قائم بذاته على الإطلاق ولا يشابهه ولا يناظره أحد. كما أن النظام الحاكم الجاري على الطبيعة هو أحسن النظام وذلك واحد موحد وغير متجزء.

٢- اعتبر العلامة الطباطبائي هذا برهان توحيد الخالقية، حجة قاطعة على وحدانية الله تعالى في أمر الخلقة، كما أن القرآن الكريم أشار إلى أن الخلق لله تعالى وجرى هذا الأمر في الآيات الكريمة بصور متعددة. فالعلامة الطباطبائي يرفض العقيدة بمشاركة غيره سبحانه في أمر الخلقة، ويرى، اعتمادا على بعض الآيات الكريمة، أن لله تعالى أمر الخلق و العالم هو مخلوقه على الإطلاق.

٣- حاصل التوحيد الأفعالي في رؤية العلامة، أن جميع الأفعال منتهية إلى الله تعالى. بعبارة أدق، أن جميع الحوادث والأمور ناتجة عن الإرادة الإلهية المطلقة. يقول العلامة إنه ليس هناك فاصل بين إرادة الله تعالى والشيء الموجد.

٤- حاصل التوحيد الصفاتي، عند العلامة، أن صفات الله تعالى متحدة مع ذات سبحانه و هي مطلقة وصرفة غير محدودة ومقيدة، وهذه الصفات إما عين لذاته سبحانه وتعالى، كالعلم وإما خارجة عن ذاته كالرحمة والخلق.

٥- حاصل التوحيد العبادي، في رؤية العلامة الطباطبائي، معناه أن جميع الدعوات والعبادات خاصة بالله تعالى و لا تتجاوز عنه إلى غيره. فهو منشأ الخيرات و مجيب الدعوات البتة. كما يقول فى تفسيره لبعض الآيات الكريمة

٦- في مجال التوحيد التشريعي، فسره على أن جميع التشريعات والقوانين ترجع إلى الله تعالى فهو المقنن والمشرع المطلق الحقيقي. من جهة أخرى إن الله تعالى هو الموجد للشرائع السماوية، و هذه الشريعة السماوية الفطرية واضعها هو الله سبحانه ومجريها من حيث الثواب و العقاب- و موطنهما موطن الرجوع إليه تعالى- هو الله سبحانه.

المصادر

١. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط٢، لبنان- بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠ق.

٢. ---، ---، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ط٢، لبنان -بيروت: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ١٤٢٢ق.

٣. - ---،---، الرسائل التوحيدية، ط١، ايران - قم: دار الطباطبائي للنشر، ١٩٨٦م.

٤. مكارم الشيرازي، ناصر، ط١، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ترجمه و تلخيص: آذرشب، محمد علي، قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ١٤٢١ق.

٥. ---، ---، موسوعة الفقه الإسلامي المقارن، ط١، ايران- قم: مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، ١٤١٩ق.

٦. السبحاني التبريزي، جعفر، مفاهيم القرآن، ط٤، ايران - قم: مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، ١٤٢١ق.

٧. الطبرسي، فضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط٣، ايران - طهران، ١٣٧٢ش.

٨. المدرسي، محمدتقي، من هدى القرآن، طهران: دار محبي الحسين، ط١، ١٤١٩ق.

٩. مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ط١، ايران - قم: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٢٤ق.

١٠. الطوفي، سليمان، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ط١، لبنان - بيروت : دارالكتب العلمية، ١٤٢٦ق.

١١. الحقي البرسوي، اسماعيل، مرآة الحقائق، ط١، مصر- القاهرة: دارالآفاق العربية، ١٤٣٠ق.

١٢. الحويزى، عبدعلي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، مصحح: رسولي، هاشم، قم: اسماعيليان، ط٤، ١٤١٥ق.

١٣. النخجواني، نعمة الله، الفواتح الالهية والمفاتح الغيبية، تركيا-اسطنبول، المطبعة العثمانية، ١٣٢٥ق.

١٤. الآملي، حيدر بن علي، المحيط الأعظم والبحر الخضم، ط٣، ايران - قم: نور علي نور، ١٤٢٢ق.

١٥. الزبيدي، ماجد ناصر، التيسير في التفسير للقرآن برواية أهل البيت (عليهم السلام)، ط١، لبنان - بيروت، ١٤٢٨ق.

١٦. الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

١٧. الخميني، المصطفى، تفسير القرآن الكريم، طهران - ايران، مؤسسة الإمام الخميني، ١٤١٨ق.

١٨. السبحاني، شيخ، بحوث قرآنية في التوحيد والشرك، ط٣، ايران - قم: مؤسسة الإمام صادق (عليه السلام)، ١٣٨٤ش.

١٩. ---، ---، محاضرات في الإلهيات، ايران - قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢١ق.

٢٠. الريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، ايران - قم: دارالحديث للطباعة والنشر، ١٣٨٣ش.

٢١. الشيرازي، صدر، الأسفار الاربعة، ط٣، لبنان - بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٩٨١م.

٢٢. البيقوني، عبد الله سراج، شرح المنظومة، ط١، الرياض: دار الثريا للنشر، ٢٠٠٢م.

هوامش البحث

[١] الطباطبائي، الميزان، ج٦، ص ٨٧.

[٢] الطباطبائي، الميزان، ج٦، ص ١٠٤.

[٣] الصرصري، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ص ٣٨٠.

[٤] حقي برسوي، مرآة الحقائق، ١، ص ٣٣٥.

[٥] مغنية، التفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٢.

[٦] القصص: ٧٠

[٧] المدرسي، من هدى القرآن، ج٩، ص ٣٦٣.

[٨] الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

[٩] الحويزي، نور الثقلين، ج٣، ص ٣٩٩.

[١٠] المدرسي، من هدى القرآن، ج١١، ص ٤٣٣.

[١١] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص ٨٦٠.

(١٢) الطباطبائي، محمد حسين، "**الميزان في تفسير القرآن**" (لبنان – بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠ق)، مقدمة ج١١، صص: ٣٢٧.

(١٣) سورة يوسف : الآية ٣٩.

(١٤) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ١١، ص: ٣٢٧.

(١٥) الطباطبائي، محمد حسين، "**الرسائل التوحيدية**"، (مدرسة الفقاهة)، ج:١، ص: ١٥.

(١٦) الطباطبائي، محمد حسين، "**الميزان في تفسير القرآن**" (لبنان – بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠ق)، ج :١١، ص: ١٦.

[١٧] النخجواني، الفواتح الإلهية والمفتاح الغيبية، ج١، ص ٢٤.

[١٨] الموسوى التبريزي، الأعظم والبحر الخضم، ج٣، ص ٢١٦.

[١٩] السبحاني التبريزي، مفاهيم القرآن، ج١، ص ٣٥٠.

[٢٠] الرعد: ١٦٠.

[٢١] مكارم الشيرازي، الأمثل، ج٢٠، ص ٥٥٩.

[٢٢] الأسفار ٦: ٣٦٩– ٣٧٩، شرح المنظومة: ١٧٨– ١٨١.

[٢٣] الخميني، تفسير القرآن الكريم، ج٢، ص ٣٤.

(٢٤) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٧، ص: ٢٩٨.

(٢٥)محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٧، ص: 116، بتصرف.

[٢٦] السبحاني التبريزي، مفاهيم القرآن، ج١، ص ١٦.

(٢٧) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٨، ص: ١٥١.

(٢٨) الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٨، ص: ١٥١.

[٢٩] الزبيدي، التيسير في تفسير القرآن، ج٨، ص ١١٠.

(٣٠) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٦، ص:٩١، بتصرف.

[٣١] الموسوي التبريزي، تفسير المحيط الأعظم، ج٣، ص ٣٣٣.

[٣٢] موسوي التبريزي، المحيط الأعظم والبحر الخظم، ج٣، ص ٢١٦.

[٣٣] الري شهري، موسوعة العقائد الإسلامية، ج٣، ص ٤١٥.

[٣٤] السبحاني، محاضرات في الإلهيات، ص ٦٧.

[٣٥] السبحاني، بحوث قرآنية، ج١، ص ٢٨.

[٣٦] مكارم الشيرازي، موسوعة الفقه الإسلامي المقارن، ج١، ص ٢٥٦.

[٣٧] الاخلاص : ١

[٣٨] الطباطبائي، الميزان، ج٢٠، ص ٣٨٧.

(٣٩) الطباطبائي، "**أصول الفلسفة والمنهج الواقعي**"، ج:٢، ص: ٦٨٤، بتصرف.

[٤٠] البقرة : ١٦٣.

[٤١] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٣٩٤.

[٤٢] طه: ١٤.

(٤٣) سورة الأعراف : الآية ٥٤.

(٤٤) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ١٩، ص: ٤٨.

(٤٥) سورة الفرقان : الآية ٥٩.

(٤٦) سورة السجدة : الآية ٤.

(٤٧) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٨، ص: ١٥٣.

(٤٨) سورة الأنعام : الآية ١٠٢.

(٤٩) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٧، ص: ٢٩٢.

[٥٠] الرعد: ١٦.

[٥١] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص ٣٢٥.

[٥٢] لقمان: ٢٥.

[٥٣] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص ٢٣١.

[٥٤] الفرقان : ٢.

[٥٥] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص ١٧٥.

[٥٦] الروم : ٤٠.

[٥٧] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص ١٩٥.

[٥٨] الأنعام : ١٠١.

[٥٩] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ٢٩١.

(٦٠) الإخلاص : الآية ١و٢و٣و٤.

(٦١)الصافات: الآية ١٦٠.

(٦٢)طه: الآية ١١٠.

(٦٣) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٦، ص:٩١.

(٦٤)الشورى: الآية ١١.

(٦٥) الزمر: الآية ٦٢.

(٦٦) محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ج: ٢، ص: ١٠٣.

(٦٧) فاطر: الآية ١٥.

[٦٨] الطباطبائي، الميزان، ج١٧، ص ٣٣.

[٦٩] الشورى: ١١.

[٧٠] الطباطبائي، الميزان، ج١٨، ص ٢٦.

[٧١] الإسراء: ٢٣.

[٧٢] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص ٧٩.

[٧٣] البقرة : ٢١.

[٧٤] الطباطبايى، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٥٧.

[٧٥] الحجر: ٩٩.

[٧٦] الطباطبائي، الميزان، ج١٢، ص ١٩٦.

[٧٧] يوسف : ١٠٨.

[٧٨] الطباطبائي، الميزان، ج١١، ص ٢٧٧.

[٧٩] الذاريات : ٥٦.

[٨٠] الطباطبائي، الميزان، ج١٨، ص ٣٨٦.

[٨١] يوسف: ٤٠.

[٨٢] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص ١٧٧.

[٨٣] المائدة: ٥٠.

[٨٤] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص ٣٥٦.

[٨٥] الرعد : ٤١.

[٨٦] الأنبياء: ٤٤.

[٨٧] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص ٣٧٩.

[٨٨] الأنعام : ٥٧.

[٨٩] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ١١٥.

[٩٠] يوسف: ٦٧.

[٩١] الطباطبائي، الميزان، ج١١، ص ٢١٧.